حول السفافير

الى صاحب العصور

(١)

حرر فكرك من كل التقاليد والاساطير الموروثة حتى لا تجد صعوبة ما في رفض رأي من الآراء أو مذهب من المذاهب اطمأنت اليه نفسك وسكن اليه عقلك اذا انكشف لك من الحقائق ما يناقضه

يتلو قارىء مجلة العصور هذه النصيحة القيمة في أول صفحة من كل عدد من اعداد هذه المجلة المحترمة وليس شك ان المرتاحين الى هذه العقيدة ، عقيدة تحرير الفكر من التقاليد، هم الذين يقرؤون ما يكتبه قلم الاستاذ صاحب العصور ، وهم الذين يحق لهم محاسبته اذا حاد عن السبيل الذى يدعو الناس الى سلوكه

رضينا بتلاوة العصور بارتياح لانها تدعو الي تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير على أمل أنه متى تحرر الفكر في هذه التقاليد بلغ درجة مؤدية الى الكمال أو مايقارب منه فاذا لم يكن هناك كمالا بالمعنى المعروف فان هذا التحرير يردع الفكر عن ركوب الشطط والزيغ عن الحق وخصوصاً متي كان حقاً علمياً عاماً ، اما اذا كان صاحب العصور يدعونا الى شيء ثم يعمل على نقيضه وينهانا عن تحمل قيوده ويكبل فكره باصفادها فهناك المصيبة العظمى والطامة الكبرى

ان الذى يتحرر فكره من التقاليد أو قل إن الذى يدعو الى تحرير الافكار من التقاليد يجب عليه ان ينصف بالانصاف وعدم الميل مع اهواء النفس فالمنصف هو الذى يعرف نفسه بنفسه ، وهو ايضا الذى يعرف الناس بقدر ما فيهم من صفات ، اما الميل مع اهواء النفس فليست من صفات الداعين الى تحرير الفكر من التقاليد ولن يكون الداعون الى تحرير الفكر من الذين يميلون مع اهواء النفس فكيف نعلل ذلك يا ترى وقد أقام لنا الأستاذ صاحب العصور الدليل على اجتماع النقيضين والبرهان على أنه هو ذاته محرر الفكر ومقيده في آن واحد ؟

لا احتاج الى الدليل الذى يدل على تحرر فكر صاحب العصور من التقاليد وأعداد المجلة طافحة بهذه الأدلة الجريئة ولا ينقصنى البرهان على ان صاحب العصور مقيد

المفكر ، مكبل الارادة ، معدوم الانصاف ، مأخوذا بالميل مع أهواء النفس لأنه واضح من المقال المنشور فى العدد الثالث والعشرين تحت عنوان « على السفود » الذى تناول به الأستاذ عباس محمود العقاد ورماه بأحط مايرمى به اللئيم وخاطبه باقبح ما تقذفه الالسنة السوقة بدون ما مراعاة ولا انصاف ولا حق

لقد كنا نعذر الاستاذ الفاضل صاحب العصور لوأنه فتح باب النقد البرىء على مصراعيه ، لأن النقد البرىء هو الذى يمركز قابلية الرجل على قاعدة ثابتة كما أنه فى ذات الوقت يقذف بادعياء العلم الى أتون النار ، ولكن كيف نعذره وقد قال فى الاستاذ العقاد مالا يقول مثله إنسان فيه ذرة من إنصاف ؟

يقول صاحب العصور « إذا حذفت الشعور النبيل القائم على الفهم والحق وعلى القلب والعقل ووضعت فى مكانه الأم شعور وأخزاه خرج لك عباس العقاد الجلف الاسوانى قائلا « لاأكاد افرغ من قراءة كلمة طيبة لأحد من خلق الله حتى امتلئ حقدا وارانى اشعلت النار فى لحمى ودمى »

لاأدرى وقد لايدرى صاحب العصور نفسه ماهو السبب الذى دعاه الى هذا القول فى العقاد ولا ما هو المستند النفسى الذى استند عليه فى الصاق تهمة اللؤم فى رجل كالعقاد ماعرفنا فيه هذه الطبيعة ولانمت كتابا ته العديدة عليها ولاأدرى كيف استساغ لنفسه ان ينطق نفسية العقاد او يجبرها كما تجبر النيابة الظنين على الاعتراف بغير ما اعترف فيقول بلسانه « انى لاكاد افرغ من قراءة كلمة طيبة الى آخر مانقوله عنه » ثم يقول صاحب العصور « ان لم يقل هذا المغرور ذلك فقد قالته افعاله فى الأم لغة واخس طبيعة »

انا لااريد النزول الى هذا الميدان الذى يرمح فيه صاحب العصور بسلاح لؤم وخساسة وغرور وجلف والى آخر ماهنالك من امثال النعوت الذى نعت بها العقاد ولكني اسال صاحب العصور بسكينة وتؤدة

(١) ماقيمة المرء الذى يهضم كل قول ويرضخ لكل رأى

(٢) ماالفرق بين الرجل الذى لايطأطا رأسه الاللحق ولايذعن الالحكم العقل

لاشك ان الفرق بين الرجلين كالفرق بين الابله والعاقل ولاجدال فى ان تصدى الجاهل للعاقل اقل من تصدى العاقل للجاهل ، فتصديك ياصاحب العصور للعقاد وانت الرجل الداعى الى حرية الفكر من التقاليد والاساطير المورثة لايقل عن تصدى الجاهل

للعاقل . ولماذا ؟ الجواب لأنك تقول فى العقاد «انه يورد آراء الفلاسفة ويناقشها» فهل فى مناقشة آراء الفلاسفة والمتفلسفين جريمة على العقاد يستأهل من اجلها ان يكون حماراً يلبس جلد أسد أو ذئبا يشب او وقحا سافلا كما نعته ياصاحب العصور الاديب ؟ او ليس يحق لنا ان نسمى دعواك على العقاد جهلا منك فيه لان الاندفاع مع اهواء النفس يكون من جراء نوبة عصبية او فورة من فورات الحسد .

لو نزهت قلمك وادبك وخلقك عن هذه السفاسف وقلت فى العقاد انه مترجم واقمت الدليل على أنه « مترجم » فقط اما كنت ابقيت فى سرك هذه المقدرة على السباب وكتمتها عن قرائك الذين يعرفون فيك هذه الصفة وقد كانت خافية عليهم وقد تطغوا هذه الصفة القذاعة على ادبك فتغمره فى يوم من ايام حياتك قريب ؟

قل لى ايها الاستاذ الفاضل ماهو الفرق بين الاستاذ العقاد المترجم و بينك وانت مترجم ايضا ؟ لا لا ، انا اقول لك الفرق لأن من حقى ان افرق بينكما انتما الاثنين لانى معجب بكما كل الاعجاب ومتبع كل ماتكتبانه وتترجمانه وقارىء اقوالكما قراءة دارس يمعن الفرق بينكما ايها الاستاذ انك تترجم أقوال العلماء والكتاب والفلاسفة ترجمة صحيحة وتورد كل مايدور حول الرأى من اقوال متضاربة أو متفقة ولا تدلى برأيك بين الآراء اما الاستاذ العقاد فيفعل مثلما فعلت انت ولكنه يناقش كل رأى ويسفه الفكر الضعيف ويؤيد الفكر الناضج ويبدى رأيه الخاص بملأ الحرية

لايحوجنى الدليل الى اقرار هذه الحقيقه فامامى وانا اكتب هذه السطور مجلدات مجلة العصور وكتب العقاد كلها فمن اراد أن يكون منصفا فليقرأها ومن أراد أن يكون مثقفا فليطالعها ، ومن اراد أن لا يحتقر رأى صاحب العصور فليتعامى عما كتب فى العدد الثالث والعشرين تحت عنوان « على السفود » شفقة على الأديب صاحب العصور

ومن غريب ما ينعى صاحب العصور على العقاد قوله هذا « وأذا ذهب كل انسان يقرأ الكتب التى تعد بالملايين و يلخص كل كتاب فى مقالة أو مقالات فهل يعجز عن هذا العمل أحد وهل يكون كل الناس عباقرة لأنهم قرؤا وفهموا وسرقوا ولخصوا ؟ » انه لمن الغريب جداً أن يتجنى صاحب العصور مثل هذا التجنى الذى لا يبخس حق العقاد بل بالعكس فانه يظهر قدره العلمى وقوته الفائقة فى تلاوة الكتب

القيمة وتلخيصها فى مقالة أو أكثر من مقالة و يقدمها للقارىء فيتلقفها شاكراً فضل العقاد و حامداً عبقريته ،لأنه كفاه مؤونة تلاوة كتاب ضخم بمطالعة فصل جامع مانع .ناهيك اذا كان القارىء يجهل اللغة التى ترجم العقاد عنها والامر الأكثر غرابة هو أن الأستاذ صاحب العصور الذى ينعى و يتجنى على الأستاذ العقاد يقرأ و يترجم مثل العقاد ولكنه لا قدرة له على تلخيص ما يقرأه بلباقة وفهم فيروح يترجم فصلا أو فصولا من الكتاب و يبشم معدة القارىء بها بشما و لا يخلص الانسان من تخمة ما يترجمه الأستاذ صاحب العصور إلا صاحب المعدة القوية و الصبور الجبار الجلود. فاذا فرضنا جدلا أن كلا الأستاذين مترجم فقط أى لا ذاتية بارزة له تقول دوما «أنا» فأيا منهما أفضل من الثانى و أيهما أنفع للمجتمع ؟ أنا أقول بانصاف وعدل بدون ما تردد أو تلكأ أن نسبة فضل الأستاذ صاحب العصور هى كنسبة فضل واحد الى عشرة أفضال العقاد على العلم والأدب وعلى الناشئة الجديدة والمتعلمين

أحاول تحليل صبغة الحقد الضاربة على مقالة « على السفود » بقصد نفى الغل المتأصل فى صدر الأستاذ صاحب العصور فلا أستطيع ذلك مطلقا وكيف يمكننى أن أصدق ما يقوله فيه « انه من أجهل الناس باللغة و بعلومها » .. وأن لا تخلو مقالة له من لحن وأسلوبه الكتابى أحمق مثله فهو مضطرب لا بلاغة فيه وليست له قيمة وهو فى جهة اللغة والبيان ساقط »

اللهم أشهد أن ما يقوله الأستاذ صاحب العصور كذب وافتراء واشهد ان صاحب العصور ذاته لا يقول فى الاستاذ العقاد هذا القول الهراء إلا عن ضغينة وغل وحسد وأشهد أنه يشهد فى العقاد غير ما قاله فى هذه المقالة التى كتبها لا أدرى تحت أى تأثير من تأثرات النفس أو اضطراب من اضطرابات الأعصاب لان حكم المجنون على العاقل بأنه مجنون لهو تزكية لعقل العاقل

لنفرض أن عشرة أساتذة أفاضل أصيبوا بمثل ما أصيب به الاستاذ صاحب العصور من مرض التحيز وتألبوا على الاستاذ العقاد بقصد هدمه فهل تراهم يجمعون على رميه بجهل اللغة وبعلومها وسقوطه فى البيان ؟ وهب أجمع هؤلاء السادة العشرة على رمى الاستاذ العقاد بهذا الجهل أفلا تظن أن مئات من الفضلاء يهبون دفعة واحدة لنقض هذا الجهل المطلق ؟ وأن الآلاف من أنصار العقاد يقولون اللهم نشهد

أن ما يقوله صاحب العصور ومن فرضنا وجودهم معه كذب وافتراء؟

على السفود بل على جهنم وبئس القرار أولئك الذين يقعون تحت طائلة العقاب فتنالهم المادة الثالثة من دستور مجلة العصور وهذا نصها « التحرر فى النقد من كل القيود والروابط الشخصية باعتبار هذا خير وسيلة للنهوض بالادب» وتفسير هذه المادة فى عرف الاستاذ صاحب العصور هو «اذا تخلى الله عن انسان وكان أو فر أدبا وعلما وأخلاقا من صاحب العصور وكان فذاً عبقريا كالاستاذ العقاد فانه يكون « كاللقيط الذى لا يرى له مكانا والعالم وسكانه من ناحية وهو وحده من ناحية أخرى وهو يكره الوجود من نفسه ويكره نفسه من أجل الوجود »

هذا هو حكم الاستاذ صاحب العصور على العباقرة امثال العقاد وعلى من يهملهم القدر فيقعون تحت طائلة حكمه

وكأنى بالاستاذ صاحب العصور يدعو الناس الى اتباع اسلوب جديد فى النقد لم يفتح الشيطان على سواه به وخلاصة ذلك ان يقال فى الاديب الذى يلقى على السفود ما يقوله صبيان الازقة من عبارات السباب وكلمات الفحش وفى السباب كفاية لتعلم فن النقد الذى تحله الامم الغربية المحل الاول من العلم

يشهد الله انى كنت مزمع الدفاع عن فضل الاستاذ العقاد وعلمه وأدبه بغير هذه اللهجة التى لا أرضاها لنفسى ولا احب ان يسترسل كاتب بها ولكني وبأت على رغمى باسلوب الاستاذ صاحب العصور فكتبت، انما اعترف انى ما هبطت الى الحمأة التى هبط اليها و كان بودى ان اناقش الاستاذ صاحب العصور فيما ذهب اليه فى تجريح شعر العقاد ولكني أترفع عن ذلك مخافة ان يطبق على نص المادة الثالثة من دستور مجلته

حبيب الياس الزحلاوى

الزحلاوى على السفود

(٢)

مثل الاستاذ الزحلاوى فى نقده الذى لا نعتقد أنه ليس أقل من تسافه رمى به صاحب العصور ومحرر العصور، الا كمثل القائل :

خذى الدف ياهذه واضربى وبثى فضائل هذا النبى

تولى نبى بنى هاشم وجاء نبى بنى يعرب

يناهى الفضائل !

فلا تبتغى السعى عند الصفا ولا زورة القبر فى يثرب
اذا القوم صلوا ، فلا تنهضى وإن صوموا فكلى واشربى
ولا تحرمى نفسك المؤمنيـ ـن من أقربين ومن أجنبى
فكيف حللت لذاك الغريب وصرت محرمة للاب
اليس الغراس لمن ربه ورواه فى عامه المجدب
وما الخمر الا كماء السحا ب طلق فقدست من مذهب

فقد حمل بيده الدف الذى يدعى أن كاتب السفافيد يضرب عليه وضرب عليه **وبث فضائله** فى النقد ، ولم يتورع عن شىء نهى عنه فى مقاله ولم يتعفف عن أن **يناقض** مذهب النقد الذى يعتقد أنه أرقى المذاهب ، وهو مناقشة الآراء فى لين وهوادة **ابتغاء** الوصول الى الحقيقة ، وانتحل لنفسه ما أراد أن يحرمه على صاحب العصور ، **وقدس** المذهب بالفعل وأيده بالواقع

كل هذا من غير أن يعرف من كاتب هذه السفافيد اولكنه ساق الكلام ظلماً **الى صاحب العصور** ومحرر العصور ! وانى لن أبرىء نفسى من مسؤولية النشر لا أكثر **ولا** أقل ان كان هناك مسؤولية أدبية وأظن فوق ذلك أن من حقى أن أنشر رأى **أديب** فى أديب مهما بلغ ذلك الرأى من شدة ، ومهما بلغ القالب الذى صب فيه من عنف . ذلك لانى حر الفكر لا تؤثر على صداقة بأحد ولا اعجاب بآخر ، وانى لافضل أن أغلق باب العصور وانبذها سلعة فانية لا قيمة لها فى نظرى ، على ما لها عندى من قيمة وعزة ، على أن أحاول اخفاء فكرة عنت لى أو أن أصد نفسى عن التعبير عن جائشة تجيش بصدرى او خطرة تخطر بذهنى . ذلك لانى اعيش بوجدانى لا بمشاعرى ولا بميولى الشخصية ولا بعلاقاتى مع اصدقائى حتى ولا بأهلى .

«العصور» ياسيدى ميدان تجرى فيه كل الافراس ، أصيلة وغير أصيلة ، وحلبة يتسابق فيها كل الجياد . وكان من حق الاستاذ الزحلاوى أنه يأسف وأن يرمينا بأكثر مما رمانا به ، لو أننا منعنا الاستاذ العقاد عن الدفاع عن نفسه على صفحات العصور كما تفعل كل الجرائد والمجلات اطلاقا لا تخصيصاً .

اننا ياسيدى ندعو الى حرية الفكر وندعو اليها عن عقيدة وعن يقين ثابت . لاندعو اليها دعاية ولاجريا وراء الجماهير ولااستهواء لفئة من القراء. فالعصور يستوى عندها عشرة الآف قارىء وقارىء واحد ، ويستوى عندها مليون من الجنيهات وجنيه واحد ، ويستوى عندها الف عقاد وعقاد واحد . لافرق عندها بين الكميات ، بل الفرق كل الفرق عندها فى « الكيف » فاذا فرض وكان العقاد لصاً فلماذا لايعرف الناس انه لص كبير وإذا كان عامياً فلماذا لايعرف الناس انه عامى ؟ وعلى اية قاعدة من قواعد الحرية ياسيدى الاستاذ تحاول أن تمنع كاتب من أفذاذ كتاب العصر ان يقول رأيه فى العقاد فلا يجد الا صفحات العصور ولا يجد الا صاحب العصور يتحمل هذا الاذى الذى رميتنا ببعضه ؟ ألست ترى ان هذه تضحية نقدمها قربانا على مذبح حرية الفكر التى نقدسها أكثر من تقديسنا كل شىء فى هذا الوجود من ماديات ومعنويات ؟ واذا كان العقاد غير لص وكان كاتبا بليغاً فمن ذا الذى منعه عن الدفاع عن نفسه ومن ذا الذى يدعى بان له الحق فى حرمانه من هذا الحق ؟

على أنى لاأبرىء نفسى . ومن حقى ايضا ان لاأبرىء العقاد. بل انى اتهم نفسى وأريد ان احاسبها وأشعر بلذة عميقة اذ اخلو اليها واطلب منها تقديم الحساب عما جنت وعما سفهت به . افلا ترى معى ياسيدى الاستاذ أن من حقى ايضا أن إتهم العقاد وأن احاسبه على ما يجرم اذا كان هو لا يحاسب نفسه بل يزكيها إثما وغروراً على جوانب الطرق وفى المقاهى العامة ؟

سيدى الاستاذ . ان عقادك كتلة من التكلف ، يحاول به أن يكون من أشباه الرجال الذين يقرأ لهم . ولكن هيهات أن يصبح القزم جباراً اذا لبس جلد جبار. واسمح لى ياسيدى أن أقول لك انك لا ترى فى هذا الهيكل الا جلد الجبار ، اما جبارك وعبقريك فليس أكثر من قزم منزوى بنصر القدم اليسرى من رجل جبار.

سيدى الاستاذ . لقد جنيت على العقاد . فانك بمقالك هذا قد أجبرتنى على أن أقول فيه رأيى هذا علناً وعلى صفحات العصور . على انى لا اغمطه بجانب هذا حقه. فهو أديب من أدباء العصر له ميزاته الخاصة به وله نواحيه ، كما لكل أديب ميزاته ونواحيه .

سيدى الاستاذ . انما يجنى على المرء أدبه . واذا انحط أدبه لم يفده علمه . فقل

يحفك من من اقذاذ مصر والعراق و تونس والجزائر و الشام ولبنان و فلسطين سلم من سفاهة عقادك هذا ؟ فلماذا تغضب و يغضب العقاد اذا ردت اليه العصور على يد أديب نعتقد أن العقاد العبقرى الجبار الذهن ليس أكثر من تلميذ اذا قيس به ، بعض الدين الذى أقرض الناس ، أو اذا كالت له بنفس الكيل الذى يكيل به للادباء والعلماء و التراجمة أمثالى ؟

وافرض ياسيدى أنى لست أكثر من مترجم . فهل فى هذا منقصة تعدها على ؟ ليس فى هذا منقصة ، بل المنقصة يا سيدى أن أدعي اكثر من هذا ولو كنته . وهى فى نابغتك العقاد ولا جدال .

على انى أشكرك كل الشكر لانك أفدتنى بنقدك هذا اذ عرفت فى نفسى رأى فئة من الناس وان كان لا يعنينى رأيهم ، بقدر ما يعنينى أن أرضى ضميرى أولا و قبل كل شىء .

قيل ان أرسطو طاليس كان لا يغضب . فتراهن البعض مع سفيه على اغضابه واخراجه من وقاره ، ان فعل ربح الرهان ، وان أخفق خسره . فتربص به فى بعض الطرق و أخذ يعد فى فمه بصقة كبيرة قذفها الى وجه أرسطوطاليس . فلم يغضب بل قال « أو يكون فى فم الانسان كل هذا اللعاب ؟ » . ذلك لان البحث العلمى صرفه الى النظر فى الامر نظرة بعيدة عن سفاهة الرجل .

واشهد الله ياسيدى الاستاذ انى ما فكرت فى نفسى ابدا عندما انتهيت من تلاوة كلمتك بل انصرف ذهنى تواً الى التفكير فى هل يبلغ انكار الانسان شخصيته الحد الذى بلغت من انكار نفسك بجانب هذا العقاد ؟ ولكنى وقعت على ضالتي فعلمت ان من الادباء ومن الذين يدعون الادب من هم فى حكم الظلال المتنقلة حول الاجسام المادية . وعلمت فوق هذا - وأقولها مكرها - انك لا شىء بجانب قزم منزو فى بنصر القدم اليسرى من رجل جبار

اسماعيل مظهر